مناجاة الخليل

بقلم الشيخ/ أبو قتادة

قال الله تعالى: {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا، واجنبني وبني أن نعبد الأصنام* رب إنهن أضللن كثيرا من الناس من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم* ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون* ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب}(إبراهيم:35- 41).

الأنبياء هم سادة البشرية، وهم نبراس السالكين إلى مرضاة الله تعالى، وليس هناك من لحظة في حياتهم إلا وفيها المثال والقدوة، وهم قوم اختارهم الله تعالى واصطفاهم ليكونوا رسله إلى الخلق وليحصل بهم الأسوة لبقية البشر.

هؤلاء الأنبياء كانت علاقتهم مع الله أقوى العلاقة، وصلتهم بهم أوصل وأمتن الصلة يخلون به فيبثون حاجتهم. وعلى أعتاب أبواب رحمته يفرغون تضرعهم وشكواهم وهمومهم، ومن نظر في مناجاة الأنبياء تعلم منها أمورا منها هذين الأمرين:

1- أنها تدل على ما يشغلهم ويحتاجونه، فطلبات المرء تشير إلى اهتماماته ورغباته، والأنبياء يعلمون قدرة الرب واتساع مفاتيح الغيب عنده، فإذا سألوه لم يتقيد سؤالهم إلا بشيء واحد وهو الرغبة في تحصيل ما يطلبونه، إذ لا يفيد طلبهم كون المطلوب منه لا يقدر على المطلوب، لا فهُم أعلم الناس بربهم وإحاطته..

2- فيها أدب الضراعة والدعاء والمناجاة، إذ هم أعلم الناس والخلق بربهم، وأنه غني بذاته، وهم أبصرهم بما عليه الإنسان من فقر وعجز، فمن كان هذا حاله أمام سيده لابد أن يحسن الأدب ظاهرا وباطنا، ولابد أن يحسن السؤال والمناجاة، والأنبياء هم سادة الخلق في ذلك. فكان تضرعهم نموذج لحقيقة العلاقة بين الخالق والمخلوق. بين السيد والعبد، بين الغني وا لفقير.

ولنكتشف هذين الأمرين تعالوا إلى مناجاة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لربه ومولاه. وقد علم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد دعا ربه بدعوات كانت كلها لها الصلة الوثيقة مع هذه الأمة المرحومة، فمعرفتها تعلم الناظر حرص هذا النبي العظيم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الحرص لم ينقطع حتى بعد مجيء النبي صلى الله عليه وسلم ووفاة والده إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قابل أباه إبراهيم عليه الصلاة والسلام في حادثة الإسراء والمعراج، وكان أن حمله وصية من أجمل وأفضل الوصايا وهدية من أجل وأعظم الهدايا، إذ قال له: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام. وأخبرهم أن الجنة قيعان وأنها طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر.(رواه الترمذي وقال حديث حسن).

فيا لله ما أعظم الأنبياء وما أشد حرصهم على هداية الخلق.

والآن إلى الآيات الشريفة الجليلة:

{وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا، واجنبني وبني أن نعبد الأصنام}.

الأمان في هذه الدنيا هو الوعاء الذي يحصل به أي خير يحتاجه الإنسان في مسيرته لدنياه ومسيرته لآخرته. وبدونه يفقد المرء أهم ما يحتاجه لتحقيق مقاصده. فكان دعاء إبراهيم عليه السلام لربه بأن يحقق له الأمان في الأرض التي يقطنها هو أول طلب طلبه منه، والأمان هو أحد ثلاثة أمور في الدنيا إن حزته فقد حزت ثلث الوجود، ففي الحديث: "من عاش آمنا في سربه معافى في بدنه واجدا قوت يومه فقد حيزت له الدنيا".
لكن الأمان عند بعض الناس على الضد من حقيقته في كتاب الله تعالى؛ فالقرآن يقول: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم آولئك لهم الأمن وهم مهتدون} فالأمن الرباني والذي هو وعد إلهي لا يقع إلا مع الإيمان السالم من الظلم. وهذا موافق لما بين يدينا من آيات؛ فبعد أن دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأمان في البلدة المباركة -بكة- فإنه دعا أن يجنبه ويجنب بنيه من بعده عبادة غيره، ذلك لما يعلم هذا النبي الجليل أنه لا آمان من غير توحيد الله تعالى.
وقد يظن البعض أن مجرد الحصول على رغد العيش وعدم المنازعة في وقت من الأوقات في بلدته وقريته مع وجود الذنوب والمعاصي وتحكيم شريعة الشيطان هو أمان يجب علينا أن نحميه وأن لا نضيعه، بل وصل بعضهم ممن خذله الله تعالى وأعمى بصيرته أن يقول إن الأمان والاستقرار مقدم على الحكم بالشريعة، وهذا القائل يحمل لقب داعية سلفي إسلامي، وعلى صدره نيشان لقب الدكترة في الشريعة الإسلامية. ومثل هذه الأقوال وأشباهها بدأت تنتشر وتشيع بين المشايخ والمفتين والمدرسين، وكل طلبهم أن لا تثور "الفتنة"، حسب تعبيرهم يضرب الناس بعضهم بعضا، ويقتل الناس بعضهم بعضا، وهؤلاء فساد تصورهم من جهات:
أولا: ظنوا أن الأمان هو رغد العيش وطيب المأكل والمشرب، وكثرة الرياش والأموال، ولم يعلموا أن هذا كله فتنة للخلق حتى يحصل الابتلاء والامتحان بعد عرض الإيمان عليهم، فإن آمنوا وأسلموا قيادهم لدين الله تعالى حصل الأمان وتمام النعيم وإلا فإن العذاب لابد واقع كما في الكثير من آيات الله تعالى الدالة على هذا المعنى. ومن ذلك ما قصه ربنا سبحانه وتعالى على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من قصة سبأ فقد كان لهم جنتان عن يمين وشمال، يأكلون، ويتمتعون، قال الله تعالى: {لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأتل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور}.
فعطاء الله تعالى يسبق البلاء، فحين يرى هؤلاء هذا العطا ما عليه الناس من الإعراض عن دين الله تعالى فيظنون حينها آن هذا دائم لا نهاية ولا نفاذ له، وتلك والله ناقرة أن تصيب من نصب نفسه مبلغا لدين الله تعالى.
ثانيا: إن صح قولهم بأن الأمان يمكن أن يكون مع غياب الشريعة، وأن الفتنة في حصول الفرقة والتنازع بين المؤمنين وأعداء الدين فهؤلاء ظنوا شرا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه جاء وفرق بين الأب وبنيه، وبين الرجل وأخيه، وبين المرء وزوجه. وتقابل الأقرباء في صفين كل صف يقاتل الآخر. وكانوا قبل ذلك على رأي واحد وهوى لا يتنازعون فيه. فهل يقول من معه ذرة من إيمان: إن

الحال مع الكفر أحسن وأطيب وأهنأ من الحال مع الايمان. والله لا يقول هذا مسلم يعرف دين الله تعالى.
فالإيمان يتم به الأمان والتوحيد يقع به أمان الله لعبيده في الدنيا والآخرة، أما الشرك والكفر والظلم والمعاصي فهي نذير أن ما بعدها هو العذاب والفتنة والفرقة وسوء المنقلب.
هذا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يدعو ربه أن يجعل البلد الحرام آمانا يآوي إليه من تاب إليه. وهكذا جعل الله تعالى حكم هذا البلد. فهو لا ينفر صيده ولا يقطع شجره ولا يختلى خلاه. {ومن دخله كانء آمنا}.. لكن وحسبنا الله ونعم الوكيل.
ما أسرع الناس إلى مناقضة حكم الله تعالى ومخالفته، فلا يكاد سمعك يخلو من ظلم الحاكمين لهذا البلد. حيث صيروه مصيدة للعباد واللاجئين إلى الله فيه، إذ الدولة الخبيثة لا تكف عن ظلم هؤلاء وأخذهم من الطواف ومن داخل الحرم بلا خوف من الله تعالى ولا حياء من الخلق ثم تعذيبهم أشد العذاب، وإن كانوا من غير القاطنين في تلك البلاد سلموهم إلى جلاديهم من حكام بلادهم حيث القتل والسجن والعذاب. فياالله: ما ألعن هؤلاء القوم وما أرذلهم وما أخسهم! والله إنهم فعلوا مالم يكن يخطر على بال كافر مشرك من قريش لما كانت قائمة على البيت الحرام، فإنها ما كانت تجرؤ نن تنفر الصيد فيه أو أن تصيد الأوابد لو التجأت إليه، فلا إله إلا الله كم هو كفر نظام آل سعود بين واضح ثم لا يراه البعض.
ثم يواصل إبراهيم عليه الصلاة والمسلام مناجاته وضراعته لمولاه: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس}.
إن التوحيد والبراءة من الشرك هو هم الأنبياء والصالحين. وهو مدار رغبة الأنبياء بحصوله على أنفسهم وفي الناس، وكما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه بأن يجنبه الشرك فإنه دعا قومه له وأوصى بنيه به قبل موته لما قال لهم: ماتعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك.. ذلك لأن أعظم خير في الوجود إنما هو توحيد الله تعالى وأكبر شر وأعظمه إنما هو الشرك بالله تعالى، ومن فهم هذا وتمثل صورة الأنبياء وأدرك همومهم ودعوتهم فإنه قادر بعد ذلك أن يعرف الفارق بين هذه الصورة الجليلة وما يقابلها من دعاة الإسلام، ومن خلال هذه المقارنة يعرف مقدار قرب الداعي من حقيقة الدعوة أو بعده عنها.
ثم اعلم أنه لا يأمن من الوقوع في الشرك، إلا من جهل التوحيد، ومن ظن أنه في أمان من هذا المهيع فهو جاهل بنفسه وجاهل بربه. فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الموحدين يدعو الله تعالى أن يجنبه ويجنب أبناءه عبادة الأصنام ومن الوقوع في الشرك، وهكذا هو أمر الصالحين والعلماء، فقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول: "والله إني لأجدد إسلامي، والله إلى الآن ما أسلمت إسلاما صحيحا".
تأمل هذه الصورة وهذه الحقيقة ثم انظر إلى اطمنان البعض إلى حاله وحال أمته، وكيف يرى في توحيد الله تعالى أمرا ثابتا في القلوب فلا ضرورة للتذكير به. ولا أهمية للحديث حوله، بل هم يطعنون في من تكلم به أو ذكر نفسه والناس به.
ثم كانت براءة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ممن أعرض عن توحيد الله تعالى ولو كان ابنا أو قريبا. وجعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام مدار القرب والمودة والمحبة هو توحيد الله تعالى فلا نسبة بينه وبين الخلق حتى لو كانت نسبة الدم

والنسب إذا تم نقص التوحيد بل النسبة الوحيدة هي نسبة التوحيد والعلاقة على أساس الإيمان، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى. ولا يقفل أبواب المغفرة بل يجعلها مفتوحة لمن أراد ولوجها {ومن عصاني فإنك غفور رحيم} وكذلك ربنا جل في علاه وهو الذي علم خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذا، فتأمل بارك الله فيك، ما ختم الله جل في علاه قصة أصحاب الأخدود، وما صنع أعداء الله بالمؤمنين من التحريق بالنيران، لكنه لم ييئس الخلق من رحمته بل قال: {إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق..} ثم لم يتوبوا، إنه إبقاء لباب الرحمة والمغفرة فلا إقفال له ولا إبطال لعمله.
ومثل ذلك عيسى عليه الصلاة والسلام حين قال {...إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم}.
ثم كان طلب الخليل عليه الصلاة والسلام أن يجعل هذا البلد مهوى الأفئدة ومحط الرزق بالثمرات، وذلك أن أم القرى لا زرع فيها، بل هي صحراء قاحلة، وسر ذلك، والله أعلم هو إظهار قدرة الله تعالى أنه جل في علاه قادر أن يجعل المحبة في القلوب لهذه الأرض لا لجمال زهرها ولا لثمر شجرها بل لسر العبودية فيها، ولوقوع بركة الفضل الإلهي فيها بأن يكون فيها أول بيت له في الأرض يوضع للناس، ففضل الله تعالى اختيار واصطفاء، وعطاء لا يحجزه شيء.
لكن تنبه إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام {..ربنا ليقيموا الصلاة..}. أنه لا قيمة للوجود مهما علت فيه مظاهره الدنيوية إلا بالعبودية له. والصلاة هي أجل وأعلى أعمال ووظائف العبودية لله تعالى.
كان الإيمان مع الأمان، وكان العطاء والفضل والمنة الإلهية مع العبودية.
{لعلهم يشكرون}: فلا تمام لهذا الفضل ولا دوام له إلا بالشكر كما قال الله تعالى: {ولئن شكرتم لأزيدنكم،. وبقية الآيات كلها على هذا النسق الرائع:
¬ فهو يطلب ما يحتاجه في هذه الدنيا ليتم مقصد خلقه (الإيمان والعبودية).
وهو¬ يقدم إيمانه وعبوديته لله تعالى ليتوسل بهما إلى الله تعالى.
وهو يقدم طلب¬ نفسه وحاجته وهي كذلك حاجة أبنائه من بعده.
وهو يذكر في مناجاته ما منَّ الله¬ تعالى به عليه ليتحقق الشكر وعبودية الله ليتم قبول الطلب الآخر.
وهو لا ينسى¬ ولا يتوقف في أن يخلل دعاءه استرحام الرب بكلمة رب، وربنا:
- {رب اجعل هذا البلد آمنا}.
- {رب إنهن أضللن كثيرا من الناس}.
- {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع}.
- {ربنا ليقيموا الصلاة}.
- {ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن}.
- {إن ربي لسميع الدعاء}.
- {رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي}.
- {ربنا وتقبل دعاء}.
- {ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب}.

وقد علم من دعاء الأنبياء أن طلب المؤمن لنفسه يكون بهذا الاسم: الرب، وأما إن سأل المؤمن ربه عذاب الكافرين فيكون باسمه تعالى(الله)، وذلك سر تكلم عليه السلف في بعض مصنفاتهم لا يتسع المقام له هنا.
وهو يخلل دعاءه بما يحب ربنا تعالى أن ينسب له: {ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء}.
وهو يجمع بين طلب الدنيا والآخرة: {ارزقهم من التمرات.. اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب}. وهو في دعائه حلقة متصلة بين ما مضى من المؤمنين ومن هو آت من بعده، فليس هناك شعور بالانقطاع والعزلة: {اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين}. صلى الله على إبراهيم الخليل فقد كان أمة وحده.